

من فنون الشعراء

قلم فضيلة الأستاذ أحمم الشرباصي المدرس بالزهر الشريف

قلم يشغل له بالاً ولم يوقظ له فكراً
فيحييه زياد :

رويدا سيدي مهلاً ولا تستغرب الأمر
لقد سقناه بالأمس فحج الكعبة الغرا
فلما لمس الركن ومست يده السترا
وقلنا الآن من ليلى ومن فتنها يبرا
سمعناه يناجي الله من ساحتها الكبرى

ابن عوف : وماذا قال ؟

زياد :

ماتاب من العشق ولا استبرا
ولكن قال : يا رب ملكت الخير والشرا
فهات الضر إن كان هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحر فلا تبطل لها مسجرا
ويا رب هب السلوى لغيري وهب الصبرا
وهب لي مودة المضي بها لا ميتة أخرى
وفي مكان آخر نجد ليلي - وهي أعلم القوم بقيس -

تقول عنه :

وقيس ذو جننة وإن زعموا
جنونه مدعى ومصطنعنا
تحير الناس في جنون قى
لا عقل إلا بشعره ولما
وبعد ذلك بقليل تتحدث عن دائها ودائه فتقول :
ويح قيس ويح لي أي ثار
للمقادير عند قيس وعندي ؟
أعجب الحى داء قيس ودائى
وتعابى الدواء كهان نجد

كثيراً ما يلجأ جمهور الأدباء - ولا سيما الشعراء منهم - إلى الحيلة تخرجه من مأزق حرج أو مجال ضيق ، وكثيراً ما تلجأ في اصطیاد تلك الحيلة وتسويغها براءة رائعة وخلافة خادعة ، تشهد لصاحبها بطول الباع واليد الصناع ، وتدل على اقتدار في التخلص من الأزمات الفنية والمضاييق التصويرية ، فقد يتخيل الأديب في قصته أو الشاعر في ملحمة صوراً تتسلسل بها حوادث ، ويحاول الأديب أو الشاعر أن يضيف على تخيلاته أبواب الواقع المألوف والممكن المعروف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وجأة يجد نفسه أمام عقبة تصطدم مع الهدف الاسامي الذي يهدف إليه من قصته أو ملحمة ، فلو سارت القصة سيراً مألوفاً لما وصل صاحبها إلى النتيجة التي أرادها ومهد لها وسعى إليها ، وهنا إما أن ينحرف عن هدفه الأول ، وإما أن يقف ليصطنع ما يقضى على تلك العقبة ، ويمهد أمامه الطريق .

انظر على سبيل المثال إلى أمير الشعراء شوقي في مسرحيته الباقية « مجنون ليلى » تجد أن هدفه الاسامي في هذه المسرحية هو أن يبين لك سلطان الهوى العذرى المشبوب على العاشق المضي ، وأن يرسم أمامك لقيس بن الملوح صورة تتبين منها أن قيساً قد خبله هواه واستبد به العشق ، فترك له من سبيل إلى النجاة أو الشفاء ، وقد أصابه الجنون فما يليق أن يمد في العقلاء ، وها هو ذا شوقي يعرض لنا قيساً وقد صرعه الوجد والهوى ، فما يفيق رغم الصباح والهتاف ، ويقول عنه ابن عوف لزياد راوية قيس :
زياد انظر فما انبك صريع الوجد والذكرى
كما مر بنا الركب الـ حسـيـنى به مرا

لا الحواميم تصرف الجن عنا
حين تتلى ، ولا رقى السحر تجدى
أبقيس وبى هوى عبقرى
يسلب العقل من ذويه ويردى
هلة البيد من قديم وداء
ضاع فيه الرقى وحار المفدى

إذن فالهدف الأسامى — أو من الأهداف الأسامية
فى المسرحية على أقل تقدير — أن يصور لنا شوق هذا
السلطان القوى العارم للحب الدفين المسكين على نفوس
الحسين الصادقين ، وتتسلسل مناظر الرواية ومواقفها
لتؤكد هذا المعنى ، فتارة نرى قيسا هائما فى الصحارى
والقلوات ، وتارة يسامر النجوم والكواكب ، وتارة
تحترق يده بالنار وهو مع لى فلا يشعر ، وتارة
يسأل الليل أو الريح عن حبيبته ، وتارة يتحدث
عن شيطانه الأموى الذى يتحكم فيه ويوحى إليه بشعر
الهوى والصبابة ، إلى غير ذلك من أمارات وعلامات ...
ولكن ها هو ذا شوق رحمه الله يلقي فى طريقه
السلسل عقبة تعترض هدفه ، أو قل إن الشاعر البارع
الصناع قد أوجد هذه العقبة وافعلتها ، ليحاول
بعد اصطناعها التغلب عليها ، فيفلح ، فيرينا من نفسه
اقتدارا فتريد له إجلالا وبه إعجابا ؛ « أنتم الناس
أيها الشعراء ... »

هذا هو الفصل الثانى من المسرحية ... وهذه
بدايته ... « طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب
على مقربة من حى بنى عامر ، حيث تبدو مضارب هذا
الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل التوباد ؛ قيس
وزياد جلوس إلى جذع نخلة ، يستشرفان شبحا يسير
نحوهما ... » إنها بلهاء جارية قيس ، جاءت تحمل إليه
دواء يستشفى به ، ممثلا فى شاة مذبوحة ، فيسأل قيس
صديقه : « زياد ماتلك ؟ من الجويرية ؟ أتلك بلهاء » ؟
فيجيبه زياد : « أجل قيس هيه » . وتظهر بلهاء وعلى
رأسها قصعة فيها الدواء المرجو والعلاج المأمول ، فيها
الشاة الحنيذة ، فيسأل قيس : « بلهاء كيف الحى كيف
أميه ؟ » .. إنه يسأل عن أمه العزيزة الغالية ، فلا شك
أنه يوقرها ويحلمها ويرعاها ، ويحفظ طاعتها ويدين لها

بالولاء ، ويقابل كل ما تفعله أو تقوله بالطاعة والقبول ،
ولذلك تضع بلهاء القصعة بين يديه قائلة : « تسأل عنك
كما سألت » ولكن فيسأ تبدو عليه كراهة للطعام
وعزوف عنه فيقول له رفيقه زياد : « بالله قيس إلا
أكلت » فيشتمد عزوف قيس حتى تعجب الفتاة فتقول :
« زياد ، ما ذاق قيس ولا هما » .

وهنا يحاول زياد أن يثير فى قيس عاطفة البنوة
الوفية للأمومة الغالية الرحيمة فيقول له :

طبخ يد الأم يا قيس ، ذق مما
الأم يا قيس لا تطبخ السما !

وما أجل قوله : « لا تطبخ السما » ، وما أوجع
ما فيه من تقريع وتوبيخ ... ثم ينزع زياد غطاء القصعة
ليثير قنارها ، ويفرى قيسا بالليل إليها ، فيروعه أن
يرى فيها ذبيحة من أطيب الذبائح ، فينادى قيسا :
« تعال تأمل قيس تلك ذبيحة » فيجيب قيس : « عسى
اليوم نحر » ولكن لا نحرولا أضحى ، وإنما هى لونة
الحب أذهلت قيسا عما حوله ، فيجيبه زياد : « أين
نحن من الأضحى ؟ »

ويرى قيس لحم الذبيحة ، ويتذكر الأنامل العزيزة
التي قامت على طبخها وإعدادها ، أنامل الأم الروم التي
لا تمون ، فيحن إليها ، ويشعر بفداحة مصابها فيه
وفى جنونه فيقول :

أرى صنع أمى يا زياد ، فديتها

بروحى وإن حملتها الهم والبرحا

ستخبرنا البلهاء

ويلوح لزياد بريق من أمل فى لين قيس وخضوعه
فيصرخ فى الفتاة قائلا :

... .. بلهاء يبنى

ولا تسكتى عنا الحديث ولا الشرحا
وهنا تقص الفتاة قصة الشاة ، وتبين كيف تعب
القوم فى البحث عن دواء لقيس من دائه ، وكيف جاء
العراف وهو من هو عند العرب فى الفهم والخبرة ،
وسأل عن قيس وبحث عن أمره ، ووصف العلاج الذى
لا يخيب ، والدواء الذى لا يفشل ، وكأنها تريد أن
تقول لقيس : ليس هذا طعاما من الأم فحسب ، ولا نفحة

من حمى الأهل فقط ، ولكنه فوق ذلك دواء من طبيب خبير ، وعلاج من نظامى بارع ... لأنها تجيب فتقول :

لقد مر عراف اليمامة بالحى
فما راعنا إلا زيارته صبحا

طوى الحى حتى جاء عن قيس سائلا
وأظهر ما شاء المودة والنصح

ولاحت له شاة جنوم بموضع
تخيلها ظلا من الليل أو جنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندها

فقام إليها يافع يحسن الذبحا
فقال انزعوا من جثة الشاة قلبها

فلم نال قلب الشاة نزما ولا طرعا
فلهما شـويناهما رقى بعزائم

عليها ، وألقى فى جوانبها الملحا
وقال اطلبوا قيسا فهذا دواؤه

كأنى به لما تناوله صبحا
لأنها فرصة يجب ألا تضيع ، وإنه العراف الجليل

الذى يجب أن يطاع ، وإلا فقيس رجل يتعنت ويتمرد ،
هكذا يقضى تسلسل الحوادث وطبيعة الأشياء ، ولذلك

يعجل رفيقه زياد فيقول لقيس :

تعلل قيس بالشاة عساها تذهب الحبـا
فما العراف بالمجهول لا علمـا ولا طبا

ولم تعلم عليه البيـد تدجيلا ولا كذبا
طبيب جرب اليابس فى الصـحراء والرطبا

فذق قيس ولا ترتب بما قال وما نبا
وتلك الأم يا قيس أطعمها تطع الربا

ماذا يصنع قيس هنا إذن ؟ ... لقد أخرجته الفتاة
بقصتها للثورة ، وأخرجته زياد بإغرائه العاتب ، فلا بد

له إذن من الاستجابة بولو فى بطنه ، وتحكم قليل ...
وهذا ما كان ... قبل قيس أن يأكل من الشاة ،

ولكنه لا يأكلها كلها ولا أكثرها ، بل إنه يكتفى
بجزء صغير منها وإن كان جليلا ، إنه يريد قلب الشاة

فقط ، ولا شيء أكثر من القلب ، ولذلك يقول :

زياد اسمع وكن عونى وخل اللوم والعتبـا
إذا ما لم يكن بد فإنى آكل القلبـا

القلب ؟ ... إنه شيء حاضر ويسير ، ولا بد أنه
موجود فى الشاة ، فمن ذا الذى يجرو على أن يقدم

شاة لمزيهه ويتزع منها أغلاها وهو الفؤاد ؟ ...
لذلك يصرخ زياد فى الفتاة :

قيس يبغى القلب يا بلـهـاء أين القلب أيننا ؟
وتقرح بلهاء لاستجابة سيدها وقرب خلاصه من

دائه فتقول :

هو عندى ويسير ما اشتهى قيس علينا
هو فى الشاة ...

فيأمرها زياد قائلا : « هلمى . أخرجى القلب إلينا » ...
ولكن - وآه من لكن هذه دائما - ...

ولكن إذا ظهر القلب فقد برئ قيس للمريض ، وبطل
السحر والساحر ، وضاع الهدف الذى يرمى إليه الشاعر ،

وهو الإبقاء على تصوير قيس فى صورة المجنون بحبه
الذى لا يقدر على البرء منه ، بل ولا يريد البرء منه ،

وإذن فيجب أن يحتال شوق هنا فيبرع فى الاحتيال ،
ويصطنع فيجيد فى الاصطناع ، ويخرج من المأزق

الخرج فيحسن الخروج ، ويفجأ القارىء بعد هذه
المحاورة الطويلة التى ظمها ستمصل إلى نتيجة حاسمة

بما لا ينتظره وبما لا يكون فى الحسبان ... كيف
يحتال إذن ؟ ... فليجعل بلهاء تبحث عن القلب فى الشاة

وأنقة من وجوده مؤمنة بحضوره ، فرحة بقرب الفرج
وذهاب الألم ، ... ثم فلنفاجئنا ونحن فى حرارة الشوق

ولطفة الحنين إلى معرفة النتيجة بأن الفتاة قد نسيت
القلب ، لا بل نزعته من الشاة بيدها قبل حضورها ،

فتقول :

القلب ؟ ... أين القلب ؟ أين يا ترى وضعته ؟
يا ويح لى نسيت أنى بيدي نزعته !

وهنا خاب المسعى وفشل الأمل وضاع الرجاء ،
وفترت همه زياد وبلهاء ، واعتز قيس بموقفه بعد أن

أطالوا عتابه ، فهتف فيهم بالبيت السائر :

وشاة بلا قلب يداووتى بها

وكيف يداوى القلب من لا له قلب ؟

وهكذا استطاع شوق البارح أن يفتن فى اصطناع
هذا الحوار الجليل ، وأن يتأدى به إلى تلك العقبة الكؤود

التي حسبتها مستهدم الهدف ، ثم فجأة يبرع فى الخلاص
منها بتلك الحيلة ، حيلة القلب الضائع ! ...

حقا ، ما أبرع الموهوبين من الشعراء ! ! ...

أصمـر الشـرباضى

المدرس بالأزهر الشريف